عند مؤرخى الإسلام والمسلمين تأييد لنزعة دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذى خلق العرب خلقًا وأنشأهم إنشاءً ، فنقلهم من الظلمات إلى النور ، ومن العدم إلى الوجود . وهو عند مؤرخى اللغة العربية ، وآدابها يرجع إلى الشك فى كثير من النصوص الأدبية التى أُثرت عن العرب قبل الإسلام من خطب وسجع وأمثال » .

ولا أريد فى هذه الكلمة أن اعترض على صاحب الكتاب فى وصفه النثر بقوله (الفنى) ولا أن أطالبه بحكمة هذا الوصف وإن كنت قد جهدت أن أجد لها معنى يقوم عذرًا لهُ فى وضعها فأعيانى الطلب . والواقع أنى قرأت الكتاب فلم أعثر فيهِ على حدٍّ أو تعريف لما سمّاه النثر الفنى ، وكلما أردت أن أجمع له حدًّا أو تعريفًا من معنى كلامهِ وجدت فى غيره من معانى كلامه ما يتفارط عنده ماجمعت لهُ من الرأى . وكان صواب التأليف غير ذلك ، لأنهُ جعل هذه الكلمة (النثر الفنى) موضع الجدَل بينه وبين خصومه فى الرأى من المستشرقين ومن تابعهم فى هذا الشرق العربى . وما يقوم الجدل عليه ويقصد القول فيه ، لا يصح أن يكون موضع شك أو غموض أو إبهام أو اضطراب .

يقول صاحب الكتاب « هل كان للعرب نثر فنى ؟ » ونحن نجيب عن هذا السؤال بما نضمنه ما نوافقه فيه وما نخالفهُ عليهِ . فقد كان العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب إلَّا قليلًا من أهل المدن كمكة والمدينة (يثرب قديمًا) وأطراف اليمن ومشارف الشام ونواحى الحيرة ، وهؤلاء الكتاب لم يكن لهم تأثير بيّن فى الأمة العربية لأن جماعة العرب لم تكن لذلك العهد (قبل الإسلام) تعرف الكتابة والخط ولا كان من همهم ذلك ، ولو افترضنا أن هذا العدد القليل الذى وصف بالكتابة كان يكتب وعنينا أنهُ كان يؤلف ، بقى الأمر على ماهو عليهِ إذ كانوا – على ذلك – يؤلفون لمن لا يقرأ ولا يكتب . ومع هذا فقد كان العرب يتخذون الكتابة فى بعض الأغراض كالعهود والرسائل العظيمة الخطر كالذى يروون مما كتبه لقيط بن يعمر الإيادىّ إلى قومه إيادٍ بالحيرة يحذرهم كسرى (سابور ذا الأكتاف) وكان قد أجمع على غزو إيادٍ فأرسل لهم لقيط – وكان كاتبًا بديوان كسرى – قصيدتهُ المشهورة التى يقول فيها :

ياقوم لا تأمنوا إن كنتمُ غُيُرًا | على نسائكم كسرى وما جمَعا
قوموا قيامًا على أمشاط أرجلكم | ثم افزعوا ، قد ينال الأَمْنَ مَنْ فزعا

ويقول فى آخرها :

هذا كتابى إليكم والنذير لكم | لمن رأى رأيهُ منكم ومن سمعا

وقد ورد فى ذكر العهود المكتوبة شعر جاهلى كثير منه قول الحارث بن حِلّزة اليشكرى فى الحرب التى كانت بين بكر وتغلب .

واذكروا حلف ذى المَجاز وماقُـ | ـدِّم فيه العهود والكفلاءُ
حَذَرَ الجور والتعدى وهل ينقُـ | ـضُ مافى المَهارق الأهواءُ

ويعنى بالمهارق كتب العهود والمواثيق التى كانت بين بكر وتغلب أيام الهدنة والصلح .

فنحن لا نستطيع أن ننكر أن العرب كانوا يكتبون ويتراسلون فى بعض الأحايين ، ولكننا نستطيع أن ننكر أنهم كانوا يصنفون الكتب ويؤلفون الرسائل فى الأغراض الكثيرة . ويجب على المفكر فى هذا الأمر أن يعلم أن كلام العرب فى محاوراتهم ومجالسهم وخطبهم كان هو الكلام المتخذ فى الرسائل والعهود وغير ذلك إذ أن هذه اللغة العربية التى بين أيدينا والتى نزل بها القرآن والتى كان يتكلم بها الرسول ﷺ وصحابته رضى الله عنهم كانت إلى القرن الثانى والثالث من الهجرة تؤخذ من أفواه العرب البداة . فلا يعقل بعد ذلك أن يكون فى الجزيرة العربية كُتاب قد تفرغوا للكتابة حتى نسأل هل كان هناك (نثر فنى) أو لم يكن فإن هذا السؤال يقتضى أن يكون فى الجزيرة فئة قد تجردت للكتابة فعلت على غيرها من عامة الناس فى الأسلوب البيانى . هذا والرسول نفسهُ ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يعد أفصح العرب ، وكان من أصحابهِ من يجيد الكتابة كعُمَر وعليّ وزيد وعثمان رضى الله عنهم ومن يتدبر هذا يجد أن النثر على المعنى المعروف عندنا لم يكن مما تتطلبهُ العرب وتتفرغ له وتتفوق فيه وإنما كان كلامهم كله مرسلًا على سجية واحدة إلَّا الشعر فإن الذى ميزه هو الوزن والقافية .

* * *

أما قول صاحب الكتاب أن مؤرخى الإسلام اتفقوا على أن العرب لم يكن لهم وجود سياسى أو أدبى قبل النبوة فهذا قول مرسل لاحد له ، وهو كلام لم يقل بِهِ أحد من العلماء وإنما كانوا يعنون بما يصفون بِهِ العرب من الجهل والضلال ما يتصل بأمر الدين والتوحيد وإلّا فإنهم قد استشهدوا فى تفسير القرآن نفسه بنوع من كلام العرب وهو الشعر . أما المسألة السياسية والكتلة الدولية فإنهم يعنون بذلك أن لم تكن أمة متآزرة ذات حكم واحد وسيادة متصلة من أعلى الجزيرة إلى أسفلها بل كانت قبائل متنازعة يأكل بعضها بعضًا حتى جاء أمر الله ونزل القرآن على محمد ﷺ ليكون مبشرًا ونذيرًا وهاديًا إلى الله بأمره وسراجًا منيرًا فألّف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانًا وقاتلوا فى سبيل الله حتى فتحوا الأرض واستولوا على ملك كسرى وقيصر . وليس فى هذا موضع للجدال ... ولا اتفاق - كما يقول صاحب الكتاب - يرجع إلى أن مؤرخى الإسلام يقولون ذلك تأييدًا لنزعة دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذى خلق العرب خلقًا وأنشأهم إنشاءً فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن العدم إلى الوجود ... هذا على أن القرآن قد أخرج العرب حقيقة من الظلمات إلى النور .

ثم إن المؤلف أراد بعد ذلك أن يجعل القرآن أثرًا جاهليًا « فإنه - نسأل الله المغفرة - من صور العصر الجاهلى ، إذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره » ص ٣٨ فلو كان ذلك كذلك فما فعل القرآن بالعرب حتى أخرجهم من الظلمات إلى النور وكيف يجىء ما هو من عند الله مطابقًا لتصورات العرب وتقاليدهم على ما فيها من الطبيعة البشرية الضعيفة الهالكة الجاهلة . وهذا القرآن الذى يعدُّهُ صاحب الكتاب أثرًا جاهليًا هو الكتاب نفسه الذى أعجز عرب الجاهلية جميعًا وتحداهم وطالبهم وسخر منهم ووضع من آلهتهم وحقَّرها وأثار أحقادهم وأضغانهم . ولو كان هذا القرآن قريبًا من كلامهم أو شبيهًا بِهِ لما عجز بعض بلغائهم عن الإتيان بمثل سورة من سورهِ كما طالبهم بذلك وتحداهم . ونحن لا ننكر أن كل ما فى القرآن من لفظ إنما هو من ألفاظ العرب كما أن أكثر ألفاظ كتّابنا الآن بل كتّاب القرن الرابع الذى يتكلم عنه صاحبهُ إنما هى ألفاظ عربية ،

ونحن لا نعدُّ أسلوبنا أو أسلوب القرن الرابع فى النثر مقاربًا أو شبيهًا بالنثر الجاهلى فكذلك القرآن من النثر الجاهلى بهذه المنزلة ، فألفاظ القرآن هى الألفاظ العربية ولكن نظمه وسياقه وبلاغته ومواقع كلماته المعجزة لا صلة بينها وبين أى كلام من كلام البشر فى جاهلية أو إسلام .

ولماذا يعدُّ صاحب الكتاب هذا القرآن من النثر الجاهلى ، ويتخذه دليلًا على وجود النثر فى الجاهلية مع أن الحديث النبوىّ وكلام الصحابة المروىّ بالأسانيد الصحيحة الثابتة هو أقرب فى الأدلة وفيهِ بغية صاحب الكتاب . فأنت إذا قرأت السيرة وجدت كثيرًا من كتب الرسول إلى القبائلِ والأمم ووُلاة جيوشهِ ووجدْت أكثر من ذلك فى كلام أبى بكر وعمر وعلى وعثمان وغيرهم من أهل الجاهلية الذى أسلموا واتبعوا الرسول النبىّ الأمىّ ﷺ .

القرآن كتاب الله ، فإذا أردنا أن نبحث عن الأدلة عن النثرِ الجاهلىّ فهو فى كلام الصحابة والرسول نفسه .

هذا ونحن نعتذر إلى القراءِ عن تقصيرنا فى الكتابة عن كتاب النثر الفنىّ فإنّ لهذا موضعًا آخر إن شاءَ الله .

* * *